بقايا الفصاح

ذكرت في مقالٍ متقدم أن العامّة تتصرف في اللغة تصرفاً غريباً ، فتنقل معنى اللفظ من وجهٍ خاصٍ الى وجهٍ عام ، من هذا الشكل نقلها معنى الخشخشة ، فانّا نجد في القاموس المحيط أن الخشخشة معناهـــا : صوت السلاح وكلّ شيء يابس إذا حُكّ بعضه ببعض . إلاّ أنّ هذه المادّة لم تبق على وضعها ، فقد نقلتها العامة في عصرنا الى معنى أعم (١) ، كما أنّ هذه المادّة قد نقلت في القديم الى مثل ما نقلت اليه في الحديث ، فقد نجد في المجلّدة العاشرة من تاريخ ابن عساكر في أخبار بلال بن رباح ما يلي : أصبح رسول الله ﷺ فدعا بلالاً فقال : يا بلال ، بمَ سبقتني الى الجنة ، ما دخلت الجنة قطّ إلاّ سمعت خشخشتك ، إني دخلت البارحة الجنة فسمعت خشخشتك أمامي . وقد تكرّر هذا الحديث في الأخبار نفسها على أوجهٍ شتّى .

من ذلك يتبيّن لنا ان الخشخشة لم يبق لها المعنى الذي أشار اليه الفيروزابادي . فالخشخشة في الحديث الشريف الذي وردت فيه تومي، الى صوت رجل لا إلى صوت سلاح ولا الى صوت شيء يابس حُكّ بعضه ببعض فمهما تحدّد معجمات اللغة معاني الألفاظ فانها لا تستطيع أن تحدّد هذه المعاني من مجامع وجوهها ، فلا بدّ في كثير من الأحوال من الرجوع الى المصطلح والمتعارف ، ولا بدّ لبعض الألفاظ من انتقال معانيها على

---

(١) وقوله (وكل شيء يابس إذا حك بعضه ببعض) هو معنى عام لا خاص بالسلاح .
(لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تعاقب العصور من وجهٍ الى وجه . ولفظ الخشخشة دليل على ما ذكرت ، إلاّ أن الذي يهمنا في هذا المقام إنما هو بقاء هذا اللفظ الفصيح حتى يومنا هذا ، ونحن نظنه عامياً ، ولكنّه في هذا البقاء تحوّل من وجه الى وجوهٍ كثيرة ، فاننا نطلقه على أصوات مختلفة لم تحدّد معانيها المعجمات ، فاذا زحفت مثلاً حيّة بين التعاشيب وسمعنا صوت زحفها فإنّا نقول في أحاديثنا : سمعنا خشخشةً بين العشب (١) ، أو إذا سمعنا حركة ورقة تلعب بها الريح قلنا : سمعنا خشخشة ، وما أكثر المواطن التي تستعمل فيها الخشخشة على غير الوجه الذي ذكره الفيروزابادي .

فالخشخشة من بقايا الفصاح التي تقع على ألسن العامّة كلّ يوم . ومن هذا القبيل لفظ نَتَرَ يدد ، فقد يجوز أن نعتقد أن النتر محرّفة وأن أصلها نثر ، بالثاء ، إلاّ أن النتر بالتاء فصيحة ولها معـــانٍ كثيرة ، في جملة هذه المعاني : الجذب بجفاء وتغليظ الكلام وتشديده ، وقد حافظت هذه المادة على أصل معناها ، فإنّا نجد في تاريخ ابن عساكر ، في المجلّدة التي تقدّم ذكرها ، في أخبار تميم بن أوس الداري حديثاً طويلاً جاء في تضاعيفه : ثمّ ينتره ملك الموت نترةً فينزع روحه من ركبتيه ، فيلقيها في حقويه . فالنتر في هذا المقام يتضمّن الشدّة وهذا ما دلّت عليه معجمات اللغة ، ونقول في دمشق : نتر في وجهه ، ونحن نريد بذلك تغليظ الكلام وتشديده ، فلم نخرج في قولنا هذا عن أصل معنى المادّة ، فكما تنتقل معاني الألفاظ على مرّ السنين من وجهٍ الى وجهٍ فكذلك قد تحافظ على أصل معناها ، كما حافظت مادّة نترَ على هذا الأصل .

ومن الألفاظ التي نستعملها كل يوم في أحاديثنا ونظنّ أنّها عامية لفظ باخَ ، ولست أدري هل أشرت اليها في المقالات المتقدمة ، وكيف كان

---

(١) لأنها بحركتها تحرك الأشياء البابسة تحتها كالأعشاب والأوراق والعيدان فيسمع لها خشخشة . (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأمر فقد ظفرت بهـــا في موطنٍ جديد لا بأس بذكره ، في معجم الفيروزابادي من معاني باخ : سكن ، فيقولون باخت النار ، وباخ الغضب . جاء في شعر الشريف الرضى :

قد مضى الدهر وعفّى بعدكم لا الجوى باخ ولا الدمع رقا

فالشريف ، نضّر الله أعظمه ، استعمل هذه المادّة على معناها الحقيقي ، فالجوى : الهوى الباطن أو الحزن أو الوجد الشديد ، وكلّ هذه الأمور قد تسكن ، إلاّ أن العامّة في دمشق قد تصرّفت في هذه المادّة ، فنقلت معناها من وجهٍ حقيقي الى وجهٍ مجازي ، فنحن نقول : باخَ الثوبُ ، ونريد بذلك تغيّر لونه أو ذهب بريقه من وقع الشمس أو من الغسل وغير ذلك ، ثم توسعنا في باب المجاز فقلنا : نكتة باخة ، أي باردة لا رونق لها .

ليست الغاية من بقايا الفصاح الإتيان على الألفاظ الفصيحة في لغة العامّة ، فأكثر ألفاظ العامّة فصيحة ، مثل الأكل والشرب والنوم واللبس ونظائرها ، وإنما الغاية من بقايا الفصاح ذكر طائفةٍ من الألفاظ نظنها عاميـــة وهي فصيحة وردت في كلام المتقدمين ، إمّا على أصل معناها وإمّا على معنى معدّل ، من هذا النوع ألفاظ كثيرة تتصل بالعمران والأكل واللباس ونحو ذلك ، أو ألفاظ تتصل بمخاطبة الحيوانات مثل : هِشْ ، وزَعْرَ بالجحش تزعيراً إذا دعاه للسفاد فقال : إزعرّ إزعرّ !

فمن لغة الأكل : الناطف ، وهي أكلة شامية معروفة في أيّامنا ، فقد جاء في الأغاني في أخبار ابن هرمة ما يلي : واذا حيال الدكّان رجل بين يديه ناطف يبيعه في يوم شاتٍ ، شديد البرد ، ثم جاءت هذه المادة في شعر ابن هرمة نفسه :

لا تبتغي لبن البعير وعندنا ماء الزبيب وناطف المعصار

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا بأس بأن ننتقل الآن من المواد المفردة الى بعض الجمل الفصيحة التي لا تزال شائعة على ألسن العامة على نحو ما شاعت في القديم ، فمن قولنا في دمشق حطّ عينه عليه ، والضمير في عليه إمّا أن يرجع الى شيء وإمّا أن يرجع الى شخص وغير ذلك ، ونحن نريد بقولنا : حطّ عينه عليه ، استحسنه وأراد الاستبداد به ، وقد ورد هذا التركيب نفسه في لغة المتقدمين على تعديل يسير ، فبدلاً من حطّ ، قالوا وضع ، فقد جاء في الأغاني في أخبار حمّاد عجرد ما يلي : كنت في مجلس فيه حمّاد عجرد ومعنا غلام أمرد فوضع حمّاد عينه عليه وعلى الموضع الذي ينام عليه . . . الى آخر الخبر . وقد نتصرف في استعمال هذا التركيب تصرفاً كثيراً فنقول في بعض مخاطباتنا : حطّ عينه على الوزارة أو على الرياسة أي أرادها وأخذ يسعى في سبيلها .

ومن الجمل الفصيحة قولنا : لا أخلّيه يمشي على الأرض . إنّا نقول مثل هذا القول إذا بلغ منا الغضب على فلان كلّ مبلغ حتى كأنّا عزمنا على قتله ، وقد جاء في السيرة لابن هشام في كلامه على إسلام عمر بن الخطّاب ، رضي الله عنه ما يلي : فقال له نعيم : والله لقد غرّتك نفسك يا عمر ! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ... فلم يتغير من قوّة هذا التركيب شيء في عصرنا ، فقد بقي على قوّته ، إلاّ أنّا استعملنا في لغتنا العامية : خلّى بدلاً من ترك ، وليس في هذا الاستعمال ما يضعف من قوة الكلام .

والجمل الفصيحة التي لا تزال تقع على ألسن العامّة في أيامنا كثيرة ولا بأس بذكر قليل منها في خاتمة هذا المقال .

إنّا نقول في بعض أحاديثنا : إنتظر حتى تهدأ الرّجْل . ونحن نرمي في ذلك الى خفّة الازدحام أو الى خلوّ الطريق ، وقد نجد هذا التعبير نفسه في القديم ، فقد جاء في الأغاني في أخبار عدي بن زيد ما يلي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال لعدي : ائتني الليلة إذا هدأت الرجل لتعلم حالي ... فلم يطرأ على هذا التعبير القديم طارىء .

كما اننا نقول في مخاطباتنا : كأني أحكي مع الحيطان ، وهو قول يدل على موت حسّ من تخاطبهم ، جاء في الأغاني في أخبار حنين الحميري : قال حنين خرجت الى حمص ألتمس الكسب بها وأرتاد من أستفيد منه شيئاً ، فسألت عن الفتيان وأين يجتمعون ، فقيل لي : عليك بالحمّامات ، فانهم يجتمعون بها إذا أصبحوا ، فجئت الى أحدها فدخلته ، فاذا فيه جماعة منهم ، فأنست وانبسطت وأخبرتهم أني غريب ، ثم خرجوا وخرجت معهم ، فذهبوا الى منزل أحدهم ، فلما قعدنا أُتينا بالطعام فأكلنا وأُتينا بالشراب فشربنا ، فقلت لهم : هل لكم في مغنٍّ يغنّيكم ، قالوا : ومن لنا بذلك ، قلت : أنا لكم به ، هاتوا عوداً ، فأُتيت به ، فابتدأت في هُنَيّات أبي عباد معبد ، فكأنما غنّيت للحطبان ، لا فكهوا لغنائي ، ولا سرّوا به .... فاذا جاوزنا ما يشتمل عليه هذا الخبر الظريف من إعلامنا بمجتمعات الناس في حمص أيّام حنين وهي الحمّامات ، فاننا نقف على هذا التعبير الطريف : فكأنّما غنّيت للحيطان ، وهل في اللغة تعبير أقوى من هذا التعبير في الدلالة على موت الحس والذوق ، ولم يفقد هذا التعبير شيئاً من قوته وطرافته في عصرنا هذا .

وأخيراً أيّ كناية أحلى من هذه الكناية : إغسل يديك منـــه ، نقولها كل يوم اذا قطعنا الأمل من أمرٍ من الأمور شغلنا به أذهاننا ، أو من رجل من الرجال صرفنا اليه آمالنا ، لقد عاشت هذه الكناية في لغتنا العامية ألف سنة ، فاننا نجدها في شعر أحمد بن علي القاساني في أخباره في معجم الأدباء :

اغسل يديك من الثقاتْ واصرمهم صرمَ البتاتْ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهكذا نجد ان العامّة تميل في أحاديثها الى المجازات والكنايات وهي لا تشعر بأنها تستعمل لغة الشعراء في كلامها .

* * *

أكتفي في هذا المقال بما ذكرته من بقايا الفصاح ، وسواء أكانت هذه البقايا من المفردات أم كانت من الجمل إنا لا نشكّ في قوتهـا ، وسأعود الى هذا الموضوع حتى نرى كيف نقلب معاني المفردات في بعض الحالات من وجـه شريف الى وجهٍ دنيء كما فعلنا في نقل معاني العصابة والجرثومة .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net